الدولية القطرية في تصورات النخبة المصرية مطلع القرن العشرين

The territorial state in the perceptions of the Egyptian elite in the early twentieth century

Brai Fathi 1

براي فتحي[1*]

[1] جامعة محمد بوضياف المسيلة، FATHI.BRAI@UNIV-MSILA.DZ

تاريخ الاستلام: 2019/10/04 تاريخ القبول: 2020/02/16 تاريخ النشر: 28/ 06/ 2021

ملخص:

أدى تفاعل جملة من العوامل بمصر كحملة نابليون بونابرت (1798-1801م)، والسياسة الانفتاحية على الغرب التي اتبعها محمد علي باشا (1805- 1848)، ثم بعد ذلك الحملة البريطانية سنة 1882م، إلى إفراز مجموعة من الأفكار الجديدة ميزت الساحة الفكرية المصرية ومن أهمها ظهور التيار الإقليمي القطري الذي ساد مع بداية سنة 1900م، حيث يعمل وفق قومية مصرية خالصة باعتبار مصر كيان حضاري مميز لا يمكن حصره في توجه عربي أو إسلامي أو فرعوني أو عثماني محض من حيث توجه الهوية. وإنما تأتت لها كينونة خاصة وفق مبدأ قطري جغرافي يرتكز على نهر النيل كمحدد طبيعي، ومن ثمة فإن هذه الورقة البحثية تصبو إلى الكشف عن الأسبقية المصرية في التعرف عن مبدأ القطرية، ثم بعد ذلك اعتناق ا لتوجه القومي القطري بعد عرض أهم التيارات الفكرية القومية السائدة بمصر مطلع القرن العشرين ميلادي، وأهم تمثلات وطروحات التوجه القومي القطري لدى نخبة مصر في تلك الفترة، ومحاولة معرفة موقف أنصار هذا التوجه من التيار العربي بمصر.

كلمات مفتاحية: الوطنية المصرية ، الوطنية الاقليمية، القطرية المصرية، الحركة الوطنية، النخبة المصرية.

[*] **المؤلف المرسل:** براي فتحي، الإيميل: fathi.brai@univ-msila.dz

Abstract:

The interaction of a number of factors in Egypt, such as the Napoleon Bonaparte Campaign (1798-1801), the open policy of the West pursued by Muhammad Ali basha (1805- 1848), and then the British campaign in 1882, led to the production of a number of new ideas that characterized the Egyptian intellectual arena and The most important of these is the emergence of the Qotari regional trend that prevailed at the beginning of the year 1900. It works according to a pure Egyptian nationalism, considering Egypt as a distinct civilized entity that cannot be confined to a purely Arab, Islamic, Pharaonic or Ottoman orientation. However, it has a special entity according to a Qotari geographic principle based on the Nile River as a natural determinant, hence this paper seeks to reveal the Egyptian primacy in identifying the principle of Qotari, and then embrace the Qotari national orientation after the presentation of the most important national intellectual currents prevailing Egypt in the early twentieth century AD, He also presented the most important representations and propositions of the Qotari national orientation among the elite of Egypt in that period and try to find out the position of supporters of this trend of the trend of Arab nationalism in Egypt.

Keywords: Egyptian nationalism, regional nationalism, Egyptian country, national movement, Egyptian elite.

Résumé :

L'interaction de plusieurs facteurs en Égypte, tels que la campagne de Napoléon Bonaparte (1798-1801), la politique d'ouverture de l'Occident poursuivie par Muhammad Ali basha (1805-1848), puis la campagne britannique de 1882, donnèrent naissance à un certain nombre de nouvelles idées qui caractérisaient le domaine intellectuel égyptien. Le plus important d'entre eux est l'émergence de la tendance régionale qui prévalait au début des années 1900. Elle fonctionne selon un nationalisme égyptien pur, considérant l'Egypte comme une entité civilisée distincte qui ne peut être confinée à une orientation purement arabe, islamique, pharaonique ou ottomane. Cependant, il a une entité spéciale selon un principe géographique qotri basé sur le Nil en tant que déterminant naturel, par conséquent, cet article cherche à révéler la primauté égyptienne dans l'identification du principe qotarien, puis à adopter l'orientation nationale qotarie après la présentation des plus importants

courants intellectuels nationaux prévalant. Egypte au début du XXe siècle après JC, Il a également présenté les représentations et les propositions les plus importantes de l'orientation nationale qotarie parmi l'élite égyptienne de cette période. et essayer de connaître la position des partisans de cette tendance du nationalisme arabe en Egypte.

Mots clés: Nationalisme égyptien, nationalisme régional, pays égyptien, mouvement national, élite égyptienne

مقدمة:

يفسر التجاذبات الفكرية التي عاشتها مصر مطلع القرن العشرين حول نمط التفكير وأشكال تكوين وتسيير الدولة المصرية بتفاعل جملة من العوامل أهمها الحملة الفرنسية سنة 1798م وإصلاحات محمد علي باشا (1805-1848م) والاحتلال البريطاني سنة 1882م. ومع الزخم الفكري الذي صاحب المرحلة الزمنية المعنية بالدراسة برز منها تيار على الساحة الفكرية يحمل شعار تميز القطر المصري، إذ يعتبر مصر كيانا حضاريا مميزا وخاصا تجندت له فئة من طلائع النخبة، فعملت على ترسيخه وفق مبدأ الإقليم الجغرافي لمصر، وبعبارة أخرى أساس التفرد والتميز المصري بناءا على الحدود الطبيعية لها، وهو ما يعرف بالقطرية.

إن شيوع فكرة القطرية بمصر مطلع القرن العشرين ميلادي، وجهود فئة النخبة المثقفة على إيجاد سبل عملية لتحقيقه أفرز اختلافا في الرؤى حول تجسيده، فنظر إليه كل حسب إيديولوجيته مما زاد الأمر تعقيدا، يضاف لذلك مواقفهم المختلفة والمتباينة حول القضايا المحلية كالاستقلال وقضية الدستور، أو القضايا الإقليمية كقضية الوحدة أو التضامن العربي مثلا.

إن هذا الطرح المبني على التباين في التفكير ومن ثمة في المواقف واختيارنا لمصر كحالة إنما تأتى كونها السباقة –تاريخيا- وعلى المستوى العربي في التعرف والرغبة في خوض تجربة القطر، وعليه فإننا نبحث في عرضنا لهذه الورقة البحثية عن مقاربة تمكننا من طي الاستفهامات التالية: إلى أي حد ساهمت النخبة المصرية في ترسيخ مبدأ القطرية للدولة؟ ما دلائل تجلياته لديهم؟ وما موقفهم من الفكرة العربية؟

ولأجل ذلك فضلنا عرض الإجابة وفق خطة مبنية أساسا على محاور تتمثل في:

1. تيارات الفكر القومي في مصر مطلع ق 20م.
2. ملامح و مميزات النخبة المصرية 1900م حتى ثورة 1919م.
3. تجليات القطرية المصرية عند النخبة.
4. موقف النخب المصرية من قضية الوحدة العربية.

1. تيارات الفكر القومي في مصر مطلع ق 20م:

شهدت الساحة الفكرية تنافس التيارات القومية في مصر وقد تمثل في تعددها من تيار ذي صبغة دينية وآخر على أساس لغوي أو عرقي إلى تيار قائم على أساس المنفعة يدعو للوطنية المصرية البحتة .

1.1 التيار القومي الإسلامي:

يظهر جليا التوجه الإسلامي لمصر من خلال عديد المظاهر، ولعل أبرزها الأزهر الشريف المنبر الذي "احتكر المعرفة والتوجيه الفكري والسياسي" (عواطف عبد الرحمان، 1979، ص21) لفترة زمنية طويلة بمصر، كما مثلت فكرة الجامعة الإسلامية توجه الكثير من القادة والمفكرين السياسيين، يضاف لهذا أحد تمثلات الفكر الإسلامي لمصر وهي فكرة الجمعية الإسلامية. وسنعرض فيما يلي بعضا من سيطرة النفوذ الإسلامي في مصر.

1.1.1 الجامعة الإسلامية في مصر:

اتجه أغلب القادة و المفكرين السياسيين في مصر توجها إسلاميا تبلور في فكرة الجامعة الإسلامية التي حاول السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909م) استخدامها كأداة لتحقيق الالتفاف للشعوب الإسلامية حول الخلافة العثمانية، مما يؤكد له السيطرة على الولايات العربية (عواطف عبد الرحمان، 1979، ص22). "فمع بداية القرن العشرين ميلادي أصبحت الهوية الإسلامية في العالم الإسلامي تعني تعضيد الإمبراطورية العثمانية و تتجلى في إعلان الولاء لسلطانها الخليفة، والقبول بهيمنته الفكرية والوقوف إلى جانبه في الأزمات الدولية" (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص25)، ويعزى الفضل في انتشار التيار الإسلامي ذي المحتوى التحرري إلى الشيخ جمال الدين الأفغاني (1938-1897م) و بعد ذلك تلميذه محمد عبده (1849-1905م)، وقد عبر الزعيم المصري مصطفى كامل (1874-1908م) عن ترحيبه بفكرة الجامعة الإسلامية بقوله: "إننا نحب الدولة العثمانية لأننا قبل كل شيء نريد أن نرى أمة مشرقية تصدر منها الأنوار إلى كل أمة مشرقية، ولأننا بصفتنا مسلمين نرى أنها تحمي المسلمين في الشرق وتحفظ البلاد الطاهرة المقدسة في مملكة الخلافة الإسلامية وهي في الحقيقة مملكتنا قبلتنا التي إليها نلجأ ونحوها نتجه" (مصطفى كامل، 2014، ص85)، غير أن فكرة الجامعة الإسلامية بمصر أصيبت بانكسار واضح بعد تحالف العرب مع الغرب ضد الخلافة أثناء الحرب العالمية الأولى (عواطف عبد الرحمان، 1979، ص25)، وتجلى ذلك في الثورة العربية سنة 1916م (جورج أنطونيوس، 1987، ص87).

2.1.1 الجمعية الإسلامية:

تعود أصول الفكرة للشيخ رشيد رضا (1865- 1935م) الذي دعا إلى تأسيس جمعية تمتد فروعها في جميع أقطار الإسلام وتقوم على مبدأ أساسي هو الاعتقاد بأن الأخوة في الإسلام تمحو الفوارق الجنسية والوطنية وتؤلف بين المسلمين باعتبارهم أمة واحدة، وغاية هذه الجمعية التأليف

بين المسلمين في الخضوع لناموس واحد في العقائد والتعاليم الأدبية والأحكام الشرعية والمدنية واللغة واحدة هي العربية، وفي ذات السياق يرى أحمد طربين أن مدرسة رشيد رضا (المنار الإسلامية الإصلاحية) كان لها بالغ الأثر في تطور التفكير الديني المصري في فترة ما بين الحربين العالميتين (أحمد طربين، 1987، ص121).

3.1.1 الأزهر الشريف:

أدى إلغاء الخلافة سنة 1924م إلى زيادة نشاط جامع الأزهر الشريف، حيث برز اسم مصر كمركز نشاط إسلامي لمعالجة مشكلة الخلافة، حيث اقترح مؤتمر إسلامي يرشح فيه الملك حسين بن علي للخلافة ثم برز اسم الملك فؤاد وأجل المؤتمر العديد من المرات وعقد سوى مرة واحدة في 13 ماي 1926م (سعيد إسماعيل علي، 1986، ص17)، ولعل أن غزارة الإنتاج الصحفي ذي التوجه الإسلامي وبرعاية من الأزهر الشريف لدليل قاطع على الأثر البالغ لها، ومن أمثلة ذلك: مجلة المنار لرشيد رضا اختفت سنة 1935م، ومجلة الفتح لمحب الدين الخطيب صدرت سنة 1926م، ومجلة حضارة الإسلام لمحمد علي شراب سنة 1928، مجلة الهداية الإسلامية لمحمد الخضر حسين سنة 1928م، ومجلة الجامعة الإسلامية 1932م.

2.1 التيار القومي القطري:

تختلف التسميات من الوطنية المصرية إلى القومية المصرية إلى القطرية المصرية إلى الوطنية الإقليمية الضيقة. وإن اختلفت التسميات فإن الفكرة الجوهرية واحدة، غير أن الاختلاف الحقيقي يكمن في "نظرة كل مؤمن به من زاويته الخاصة وحسب مفاهيمه،دون أن تتبلور نظرته مع نظرات زملائه لتكون قاعدة فكرية شاملة" (عواطف عبد الرحمان، 1979، ص31)، وقد تنازع هذا التوجه مجموعة من التيارات الفكرية (عواطف عبد الرحمان، 1979، ص46).

1.2.1 التوجه المتوسطي:

تعود الفكرة إلى منظري البورجوازية أيام الحملة الفرنسية على مصر وملخصها أن فرنسا ومعها بلاد شمال إفريقيا ومصر ودول الساحل الشرقي للمتوسط إنما تعيش جميعها حول البحر المتوسط وتهدف إلى خلق رابطة فكرية بين شعوب البحر المتوسط وفرنسا توطئة وتبريرا للسيطرة السياسية التي تتطلع فرنسا إلى فرضها على هذه الشعوب" (عواطف عبد الرحمان، 1979، ص32)، وقد ظهرت نخبة مثقفة آمنت بفكرة المتوسطية واعتبرت مصر امتدادا لأوروبا من أمثال: قاسم أمين، أحمد لطفي السيد... ويعتبر طه حسين أقوى المعبرين عنه (طه حسين، دت، ص122).

2.2.1. التوجه الفرعوني:

ظهر هذا الاتجاه الطائفي مستقل عن الاتجاه الوطني على يد بعض المثقفين الأقباط وأنشئوا صحيفة الوطن سنة 1877م لصاحبها ميخائيل عبد المسيح، وصحيفة مصر 1895م لصاحبها تادرس

شنودة، عالجت هاتان الصحيفتان مشكلة الأقباط على أنهم أمة لها كيان خاص ومميز على اعتبار أن الأقباط سلالة الفراعنة وأنهم أهل البلاد الأصليين (محمد حسين، 1987، ص110).

وفي عام 1908م تأسست في القاهرة "جمعية الاصلاح القبطية" (سميرة بحر، 1979، ص155) من أجل توثيق صلات المحبة بين العناصر المختلفة التي تتألف منها الأمة المصرية والدفاع عن حقوق الأقباط وتنمية المشاعر الدينية لديهم ونشر التعليم بينهم وكانت جريدة مصر ناطقة باسم الجمعية وطالبت الجمعية بأن يكون للأقباط حقوق المسلمين في الدولة (علي المحافظة، 1987، ص128)، وفي ذات الإطار عملت نتائج التنقيب عن الآثار الفرعونية القديمة دور المغذي الروحي لهذا التوجه فعززت بذلك الانتماء الفرعوني لمصر.

3.1 التوجه العربي:

في الغالب عمل هذا التيار الفكري على تبني الخط العروبي واعتبر مصر عربية بامتدادات تاريخية، كونها شهدت الفتوحات الإسلامية مبكرا، وشهدت أيضا موجات الهجرات البشرية العربية من جهة الشرق لذلك فهي عربية بحسب تفسيرات أنصار هذا التيار (علي فهمي خشيم، 2001، ص17). فحتى وإن ظهر خافتا خلال الفترة المعنية بالدراسة إلا أنه سيطر بعد نجاح ثورة 1952م وازداد التيار قوة مع تمكن الرئيس جمال عبد الناصر من سدة الحكم وعمل على نشر إشعاع مصر العربية خارجا (طارق البشري، 1998، ص05).

2. ملامح ومميزات النخبة المصرية من 1900 حتى ثورة 1919م:

يعتبر مطلع القرن العشرين ميلادي مميزا بمصر كونه شهد ظهور نخبة مختلفة جراء جملة من العوامل أهمها التواجد البريطاني في مصر وتأثيرات النخب المستفيدة من البعثات العلمية سلفا والمتشبعة بالثقافة الغربية وأهم ما ميزها ما يلي:

1.2. عملت النخبة على العصرنة والحفاظ على الإسلام:

ويتضح عمل فئة المثقفين المصريين على الدمج بين الأصالة من خلال المحافظة على العمل بأحكام الشريعة الإسلامية، وبين المعاصرة من خلال تبني المقاربات الناجعة لتسيير مختلف شؤون الحياة.

2.2. تطور الطبقات الاجتماعية:

ويقصد بتطور الطبقات الاجتماعية في هذا المقام هو ما أفرزته الثورة العرابية على المستوى الاجتماعي ذلك أنها قامت كرد فعل على سيطرة الأتراك والشراكسة على مفاصل الدولة وبغرض تسوية الوضعية تم دمج العنصر المصري في المناصب العليا للدولة وترقية العسكريين إلى رتب عليا، ناهيك عن دخول فئة الطلبة حيز النزاع الفكري.

3.2. ظهور الطلبة كفئة سياسية جديدة:

منذ بداية القرن العشرين طفت إلى السطح النخبوي فئة الطلبة كمشارك وبفعالية في مسائل السياسة والدولة، وهو الأمر الغير مألوف سابقا (عاصم محروس عبد المطلب، دت، ص44).

4.2. النشاط الملحوظ للنخبة في ظل الهيمنة الأجنبية:

على الرغم من التواجد البريطاني بمصر منذ 1882م إلا أن النخبة المصرية لم تتوان في الدفاع عن قضية مصر رغم المضايقات القائمة سواء من القصر أو من بريطانيا وقد يفسر بإيمان النخبة بقضيتها والعزم على الدفاع عنها دون هوادة، مع تحدٍ واضح للوضع من سيطرة أجنبية – بريطانية- أو تواطؤ من القصر (ألبرت حوراني، 1983، ص78).

5.2. ظهور صفوة متغربة متأثرة بالأفكار الأوروبية:

أدت إلى انتشار أفكار جديدة مثل البحث في مسألة الهوية الجمعية وانتماء الدولة. وهذه الفئة في الحقيقة هي نتيجة لحقبة سابقة مارس فيها محمد علي باشا (1805-1848م) سياسة الانفتاح على أوروبا، و فعل آلية البعثات للخارج، مما جعل المستفيدين منها يعايشون واقع القومية خاصة في أوروبا الغربية، الأمر الذي أدى إلى تبنيهم خط القومية الإقليمية الضيقة (القطرية) ومن ثمة الدخول في مرحلة فكرية جديدة تتضمن البحث عن الولاء الجمعي وهوية الدولة المصرية.

6.2. إعادة التفكير في طبيعة حدود المجتمع:

وهي ميزة فكرية تحلت بها فئة النخبة المصرية مطلع القرن العشرين بسبب تدهور الدولة العثمانية والتواجد الأجنبي في مصر وهو ما تجلى في التيار القطري المصري (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص23).

3- تجليات القطرية المصرية عند النخبة:

ستنصب ورقتنا البحثية حول رؤية نماذج من النخبة المصرية لمفهوم القطرية كمبدأ فكري إلا أننا نود أن نشير إلى أن طرحنا للفكرة استند على منهج "هبولت أدولف تين" (HYPOLT ADOLPH TINE)(1828-1893م) المؤرخ والفيلسوف الفرنسي كونه يستحق الدرس لأنه يقدم مفتاحا لفهم جانب كبير من الفكر الوطني القطري الذي ساد مصر مطلع القرن العشرين (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص61). فالعالم تين يعتمد مبدأ: الوسط، واللحظة، والعرق، وجدير بالذكر أن الوسط وفق منهج "تين" مثله في فكر النخب المصرية وادي "النيل"، إ ذ لعتبر القطر المصري من ناحية الطبيعة الجغرافية قطعة مرتكزة بمجرى النيل العظيم مع التفاوت في التشدد بالتمسك بالنيل كمحدد طبيعي . وفيما يلي نعرض نماذجا لفهم النخبة المصرية لقطريتها.

1-3-القطرية المصرية في فكر رفاعة الطهطاوي:

يشير الشيخ رفعت رفاعة الطهطاوي (1801-1873م) في مؤلفاته الى حب الوطن الذي يعتبره الدافع الأكبر للناس على محاولة بناء مجتمع متمدن،حب الوطن أحيانا كمعنى العصبية عند ابن

خلدون أي شعور التضامن الذي يجمع بين أبناء المجتمع الواحد ويشكل أساس القوة الاجتماعية (ألبرت حوراني، 1983، ص89)، حيث يستعمل الطهطاوي مفهوم العصبية بمعنى أضيق وجديد في الآن ذاته إذ يلح في ضوئه لا على واجب المواطن السلبي في الخضوع للسلطة بل على دوره في بناء مجتمع متمدن. كما يؤكد على الدور الإيجابي كالواجبات المتبادلة بين الذين يعيشون في البلد الواحد وهكذا يحمل حب الوطن معنى خاص "الوطنية الإقليمية" أو "القطرية المصرية" (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص33).

1-1-3- أسس القطرية المصرية عند الطهطاوي:

آمن الطهطاوي بمصر كشيء مميز في المكان ومستمر في الزمان وقد ذهب في تفسيره لفكرة القطرية إلى اعتقاده بتميز الكيان المصري مع وجود بعدين له فسرهما كالتالي:

البعد الأول: بعد عربي لهذا الكيان ويشير حوراني إلى أن "ظل فكرة العروبة لا زال يلوح في ذهنه لكن ذلك لم يكن إلا من رواسب الماضي لتفكيره القديم "(ألبرت حوراني، 1983، ص89).

البعد الثاني: بعد فرعوني فهو يرى بأن "مصر الحديثة حفيدة شرعية لأرض الفراعنه" (ألبرت حوراني، 1983، ص89).

وفي ذات الإطار يعتز الطهطاوي بفرعونية مصر إذ يقول: "مصر القديمة مدعاة للاعتزاز ويمكن لمصر الحديثة استعادته"، ومما جاء في كتابه "مناهج الألباب في مناهج الآداب" ما يمكن أن نستدل به حيث يقول: "بنية أجسام أهل هذه الأزمان هي عين بنية أهل الزمان الذي مضى وفات والقرائح واحدة" (رفاعة الطهطاوي، 1980، ص187).

أما المسحة الإسلامية لقطريته فيذكرها حين يعتبر مصر جزءا من الأمة الاسلامية لكنها كانت قبلا في العصور القديمة والحديثة معا أمة منفصلة، تشكل موضوعا منفصلا للتفكير التاريخي وتتلخص فكرة القطرية المصرية عند الطهطاوي في كون "جميع من يعيشون في مصر جزء من الجماعة الوطنية" (ألبرت حوراني، 1983، ص90).

وفي إطار دعمه لفكرة القطرية المصرية اعترف الطهطاوي بوجود أمة جامعة، ويقصد بذلك الأمة الإسلامية وهي مسحة لم يغفلها في تفسيره لقطرية مصر، غير أن داخل الأمه الجامعة "جماعات قومية تنادي بولاء أبناءها" (ألبرت حوراني، 1983، ص91). إن المتمعن في قول الطهطاوي يدرك بأنها إشارة صريحة للفكر الذي دعا إليه حول بناء مصر القطر دون إغفال انتماءها لجماعة أكبر وهي الجماعة الدينية الإسلامية على وجه الخصوص.

2.3 . رؤية الشيخ محمد عبده للقطرية المصرية:

يذهب الشيخ الإمام (1849- 1905م) في تفسيراته لوحدة الأمة إلى أنها وحدة معنوية لا يؤثر فيها الانقسام إلى دول قومية، وفي ذات السياق يرى بأنه لا يمانع في أن يكون للأمة المصرية رئيس يحكم تحت إشراف الخلافة الدينية وعلى الرغم من مسحته الدينية الإسلامية إلا أنه ظل قوميا مصريا كونه

"متأصلا" (ألبرت حوراني، 1983، ص164)، حتى أنه كتب أول مقال نشرته له الأهرام تحت عنوان "لمملكة مصر".

وفي تصويره للقطرية المصرية يؤكد محمد عبده بأن: "التاريخ والمصالح المشتركة بين الذين يعيشون في البلد الواحد تخلق رابطة عميقة فيما بينهم بالرغم من اختلاف الأديان" (ألبرت حوراني، 1983، ص164). وقد أثر شعوره بأهمية الوحدة في نظرته إلى الإصلاح الإسلامي والأمة ويرى بأن الوحدة ضرورية في الحياة السياسية (عاطف العراقي، 1995، ص12).

ويشير الى أن الوحدة الأقوى تكون بين "الذين ينتمون إلى البلد الواحد أي ذلك المكان الذي لا يعيشون فيه فحسب بل يجدون فيه أيضا مجالا لممارسة حقوقهم وواجباتهم العامة وموضوعا لمحبتهم وعزتهم" (عاطف العراقي، 1995، ص57).

3.3. نظرة أحمد لطفي السيد للقطرية المصرية:

يعد أحمد لطفي السيد (1872-1963م) أحد تلامذة الشيخ محمد عبده وأحد المؤسسين لحزب الأمة ورئيس تحرير جريدته -الجريدة-، من أهم مميزات فكره حول القطرية المصرية أن الدين لا يعنيه كأحد مكونات المجتمع. وقد بنى فكرته حول القطرية المصرية على أساسين:

الأساس الأول: أن المجتمع البشري متجه بحكم سنة التقدم والذي لا يقاوم نحو طور مثالي يتميز بسيطرة العقل واتساع أفق الحرية الفردية وازدياد التخصص والتشابك وحلول العلاقات القائمة على العادات والأوضاع الراهنة.

الأساس الثاني: تأثره بـ"غوستاف لوبون" (Ghoustaphe Loubone) بخصوص فكرة الطبع القومي ،حيث أن لكل شعب بنيته الذهنية الثابتة ثبوت بنيته الجسدية، والتي تتكون بالتراكم التاريخي البطيء إلى حد ما.

والبنية الذهنية الثابته تتكون بعنصرين: العقل والطبع، وهو مجموع المواهب الناجمة عن الإرادة والمثابرة والنشاط وقوة التسلط، وبأن الإيمان الديني هو أهم العوامل المؤثرة في الطبع القومي (ألبرت حوراني، 1983، ص181).

يحدد لطفي السيد الأمة على أساس الأرض ولم يفكر بتاتا بأمة عربية لاعتبار لغوي أو أمة إسلامية لاعتبار ديني، بل فكر في أمة مصرية وبعبارة أخرى "أمة القاطنين أرض مصر"، وبخصوص طبيعة المجتمع الذي يسكن هذه الأرض فإنه يذهب إلى أن لهذا المجتمع المصري ماضيان: **فرعوني و عربي**. ومن المهم أن يدرس المصريين الماضي الفرعوني كونه يلهمهم ويلقنهم "قوانين النمو والتقدم" وهو يساير فكرة الطهطاوي في هذا فيقول: "مصر كانت حائزة كمصر الحديثة على سر التقدم الدنيوي" (ألبرت حوراني، 1983، ص185).

ولا تتوقف عنده مصرية القاطنين بأرض مصر على الأصل الواحد أو اللغة المشتركة أو الدين الواحد، فهم حسبه ليسوا مصريين لوحدهم إنما الصلة التي تربط جميع القاطنين في مصر الراغبين

في ربط مصيرهم بمصيرها قوية لدرجة أنها تتغلب بسهولة على اختلاف الدين أو اللغة أو الأصل، فما يجعل من المصري مصريا إنما هي إرادته في اتخاذ مصر وطنه الأول والوحيد (ألبرت حوراني، 1983، ص185). ولطفي السيد يدعو إلى انصهار جميع المقيمين بمصر في أمة مصرية واحدة (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص39).

ويجمع الباحثين على أن أحمد لطفي السيد من الأوائل الذين تمكنوا من صياغة دقيقة لقومية مصرية قطرية، فهو يذهب إلى أن "الأمة كيان حي، ووحدة طبيعية نشأت عن الحاجات الإنسانية التي لا مفر منها للجماعة" (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص35). ويصور الجماعة المصرية بأنها "تتألف من المصريين الأصليين ومن عناصر أخرى جديدة من الأجانب حلوا بمصر على سبيل القرار وجعلوها موضع سعيهم فصارت بعد قليل محل ثروتهم وموطن حياتهم في الحال والاستقبال" (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص36).

ومما يؤكد نظرة أحمد لطفي السيد لقطرية مصر الخالصة ما جاء في قوله: "لا شبهة عند أحد منا في معنى كوننا أمة متميزة عما عداها بمشخصات خاصة بنا، قد لا يشاركنا فيها غيرنا من الأمم ولنا لون خاص وميول خاصة ولغة واحدة شاملة...، دين للأكثرية واحد وكيفيات في تأدية عملنا ودم يكاد يكون واحدا يجري في عروقنا ووطننا محدود الجهات بحدود طبيعية تفصلنا عن غيرنا" (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص36).

مما سبق يمكننا القول بأن أحمد لطفي السيد صاغ فكرته حول قطرية مصر دون مرجعية دينية أو لغوية ورافع تاريخيا عن تميز الكيان المصري الذي حدده طبيعيا بالنيل، أي دونما ارتباط لا بالدول العربية أو الإسلامية، كيف لا وهو القائل: "نحن فراعنة مصر، ونحن عرب مصر، نحن مماليك مصر، ونحن أتراك مصر، وكلنا مصريون، وكل هذه عناصر طابعنا القومي المادية أو المعنوية والروحية الموروثة والمكتسبة، كل هذا جعل منا اتحادا قوميا أقوى من أي اتحاد بيننا وبين آخرين، وأقوى في بيئتنا من أغلب القوميات الأخرى" (ألكسي فاسيليف، 1994، ص236).

4.3 القطرية المصرية في فكر مصطفى كامل(1874-1908م):

تصور مصطفى كامل أمة مصرية تحكم نفسها في إطار الوطنية الجديدة، إذ يعتبر "مصر أمة واحدة لكنها جزء من العالم العثماني والمسلم والشرقي ولم يكن همه تحليل طبيعة المجتمع المصري ولا تربية المصريين بل تحريك الهمم في الصراع ضد البريطانيين" (ألبرت حوراني، 1983، ص206). فالأمة المصرية عند مصطفى كامل أمة مصرية إسلامية عثمانية، فهو يعطيها البعد الروحي الديني الإسلامي ويضيف لها الطابع السياسي فينسبها للدولة العثمانية.

وأساس الوحدة في تصوره يكون هو الشعور أي الإحساس بالانتماء إلى الأمة وبالمسؤولية تجاهها، وموضوع الشعور عنده هو "أرض مصر" التي يتغنى بجمالها وماضيها العظيم "أرض مصر

إلـه نعبـده"، أمـا القطـر مـن ناحيـة التقطيـع الطبيعي فهـو "وادي النيـل" (مصـر والسـودان) (ألكسـي فاسيليف، 1994، ص261).

ويذهب إلى أبعـد مـن ذلـك في تصـويره للجماعـة الوطنيـة فيقـول: " لا يجـوز للغـة أو الـدين أو الوضع الحقوقي أن يؤثر فيمن تشملهم الوطنية في أن تضم مبدئيا جميع القاطنين أرض مصر" (ألبرت حـوراني، 1983، ص212)، والمـتمعن في حـديث مصـطفى كامـل يـدرك أن الوطنيـة المصـرية لا تعنيهـا الفروقات المختلفة لا الدينية ولا اللغوية وإنما كل من سكن أرض مصر فهو معني بها، ويضيف في ذات السياق أن الرابطة المعنوية قائمة ين الأقباط والمسلمين، إذ عاشوا معا قرون عديدة في منتهى الوحدة والتجانس لكن هذا لا يعني في نظره أن على أي من الفريقين أن يتخلى عن دينه أو أن على مصر أن تكف عن كونها إسلامية قبل كل شيء.

ومما يلاحظ أن مصطفى كامل يبني فكرته حول الأمة المصرية وفق مبدئين:

المبدأ الأول: الدين.

المبدأ الثاني: الحياة الوطنية (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص27).

وحسبه دائما فهما يشكلان دائرتا الحياة، إذ ليس هناك داع لأن يقوم نزاع بينهما فالدين الحقيقي يعلم الوطنية الحقيقة.

يذهب مصطفى كامل في تفسيره للقومية القطرية المصرية إلى كون مصر لها ارتباط بالدولة العثمانية، على الرغم من أنه غالبا ما يضع "دفاعه عن استمرار الرابطة المصرية مع العثمانيين في إطار المنفعة المحتملة من هذه الرابطة في تحرير مصر من الاحتلال البريطاني" (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص28).

ويستشف من خطبه استخدامه لمفهومي "الأمة المصرية" و"الأمة الإسلامية" دون أن يكون بينهما تناقض وأن على كل أمة إلتزامين؛ إلتزام تجاه دينها وعقيدتها، وإلتزام تجاه الوطن وهو أرض آبائها.

ويـرد رأيـه إلى عـاملين؛ الأول ميلـه التقليـدي إلى رؤيـة مصـر كجـزء مـن العـالم الإسـلامي، أمـا السبب الآخر فهو محاولته تفسير الصراع العالمي آنذاك بين شرق وغرب أو بين مسلم ومسيحي، مع تمييزه لأسبقية مصر على التوجه العثماني، فيقول: "إن حبنا لمصر له الأسبقية على كل شيء آخر سواه... نحن نود أن تكون مصر للمصريين" (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص28)، وهو تعبير صريح عن الاعتراف بمصر كقطر متفرد قبل توسيع دائرة الانتماء.

ويعبر في موضع آخر: "إن الوطنية هي أشرف الروابط للأفراد والأساس المتين الذي تبنى عليه الدول القوية والممالك الشامخة وكل ما ترونه في أوروبا من آثار العمران والمدنية ما هو إلا ثمار الوطنية" (ألبرت حوراني، 1983، ص160).

4. موقف تيار القطرية المصرية من الفكرة العربية:

نوظف مصطلح القطرية المصرية وفق ما جاء من تعريف لها في الدراسة الاسرائيلية الروسية تحت عنوان "هوية مصر بين العرب والإسلام"، حيث عرفتها: "مصر أمة تضرب بجذورها في النيل كوحدة واضحة المعالم جغرافيا، يربطها تاريخ واحد، والشعور بالهوية والولاء ذو الارتكاز المحلي يتمحور حول مصر" (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص33)، وهو ما يوافق في نظرنا ما قدمه ألبرت حوراني في كتابه "الفكر العربي في عصر النهضة" بأنها: "كيان ذو وجود سياسي منفصل يمكن خلاله قيام مجتمع فاضل على غير الأساس المشترك الذي وضعه الدين والشريعة" (ألبرت حوراني، 1983، ص199).

أما موقف أنصارها (النخبة المصرية) من مختلف تجليات الفكرة العربية مثل الثورة العربية أو الانتماء العربي لمصر (هوية مصر العربية) أو الوحدة العربية فلم يكن مشجعا لها، واعتبره الكاتب أ.جرشوني "الأضعف إلى حد بعيد" (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص38)، إذ لم تكن هناك بؤرة عربية تذكر، كما لم تكن هناك رغبة للثورة العربية في أي استقطاب مصري، مما عزز الانتماء لدى النخبة بمصريتهم كما زاد موقف رئيس المؤتمر العربي بباريس من الهوة بين المصريين والعرب بإعلانه أن المؤتمر يخص عرب شرق مصر (علي المحافظة، 1987، ص98)، ويضيف أ.جرشوني" الموقف الغالب من البدو العرب الأكثر تقليدية هو الانعزال والاحساس بالتفوق والازدراء الكامل، فالكراهية التي يضمرها سكان وادي النيل لسكان الصحراء متفق عليها، والحب كان مفتقدا بين البدوي والفلاح (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص39).

وما يؤكد ذلك هو موقف أحمد لطفي السيد إذ لا يعتبر المصريين جزءا من الأمة العربية، وهي الفكرة الشائعة آنذاك، حيث لم يكن هناك من يخالف هذا الرأي إلا قلة (ألبرت حوراني، 1983، ص186)، وكان لمصطفى كامل الرأي نفسه حيث يرفض فكرة إقامة خلافة عربية، ففي عام 1898م هاجم الفكرة في كتابه المسألة الشرقية باعتبارها مكيدة بريطانية تهدف إلى بذر الشقاق في الإمبراطورية العثمانية، كما تزايدت كراهيته للاتجاهات الانفصالية العربية، فلم تكن مصر تهتم للقضايا العربية إلى حدود قيام ثورة 1919م واعتبر فكرة الوحدة العربية وهم استعماري لإلهاء الشعوب العربية من ناحية وديمومة التواجد الاستعماري من ناحية أخرى (أ.جرشوني وج.جانكوفسكي، 2013، ص40). أما لطفي السيد فيفرق بين الجامعة الإسلامية و الإتحاد العربي ويرفضهما، وقد ورد على لسانه: "لدينا وسائل العمل لمصلحتنا فلا يعوزنا الذكاء ولا الوطنية ولكن يعوزنا شيوع الاعتقاد بأن مصر لا يمكنها أن تتقدم إذا كانت تجبن عن الأخذ بمنعتها وتتواكل في ذلك على أوهام يسميها البعض -الاتحاد العربي- ويسميها الآخرون الجامعة الإسلامية" (عواطف عبد الرحمان، 1979، ص54).

ويمكننا أن نصنف الرفض المصري للفكرة العربية بأنها: "إحدى طرق تأكيد الذات القومية إذ لا تعد مصر جزءا من العالم العربي، وأنها تشغل مكانا خاصا في الحضارة العربية الإسلامية وكما لو

كانت تشغل مرتبة أعلى من الآخرين، ومنذ نهاية القرن الماضي دأب الليبراليون المصريون المتعلمون في أوروبا على عزل مصر عن العرب متذكرين عصور الفراعنة، وقد شاطرتهم هذه الأفكار مجموعه من الكتاب والأدباء والشخصيات السياسية التي تربت في مصر في بداية العقود الأولى من القرن العشرين" (ألكسي فاسيليف، 1994، ص262).

كما يمكننا أن نفسر رفض الفكرة العربية من طرف النخبة المصرية ذات التوجه القطري بجملة من الأسباب منها:

- النمو التاريخي المتميز الذي تفرد به المجتمع المصري، فالاستقلال الذي حصلت عليه مصر طبقا لمعاهدة لندن 1840م (سامي صالح محمد الصياد، 2006، ص226)، قد أعطاها شخصية متميزة عن سائر البلدان العربية الأخرى الخاضعة للحكم العثماني المباشر.

- نمو القومية المصرية بشعاراتها ورموزها التاريخية وخاصة الاتجاه الفرعوني كل ذلك أدى إى إعاقة التيار العربي في مصر (كمال إسحاق فريد، 2001، ص38).

- عدم وضوح الفكرة العربية لانكفائها تحت التيار الإسلامي منذ ق 18م وحتى بعد المواجهة العسكرية الثانية.

- الدور الذي لعبه الاحتلال البريطاني في عزل مصر عن العالم العربي منذ منتصف ق 19م وحتى النصف الأول من القرن العشرين.

- مسؤولية العرب في عدم إشراك مصر في قضاياهم القومية (المؤتمر القومي العربي، الثورة العربية...).

وقد عمد القوميون المصريون المتطرفون إلى رفض فكرة اللغة العربية الفصحى من حيث التعامل والكتابة بها والدعوة إلى استعمال اللهجة العامية والكتابة بالحروف اللاتينية، "ولكن هذه الآراء لم تجد من يتبناها و يدافع عنها" (ألكسي فاسيليف، 1994، ص254).

جدير بالذكر أن الكاتبة عواطف عبد الرحمان تبحث عن مبررات العداوة الحاصلة بين الفكرة العربية ومصر فتقول: "رغم انتشار الإسلام على أيدي العرب في مصر فإن السيادة العربية لم تستمر بل انتقلت إلى عناصر إسلامية أخرى مثل المماليك والعثمانيين، وكان الإحساس السائد في مصر هو الاحساس الإسلامي، وليس الإحساس القومي علاوة على ذلك المعنى الذي أحاط بكلمة عرب بين الناس لاسيما في مصر والذي كان من أهم العوامل التي أدت إلى تباعدهم عن الفكرة العربية لأن الناس صاروا يستخدمون هذه الكلمة للدلالة على البدوي غير المتحضر فأخذوا يعتبرونها مقترنة بالتأخر والهمجية مما استوجب تنصل المتحضرين من العروبة وابتعادهم عنها (عواطف عبد الرحمان، 1979، ص47).

وإجمالا فإن انشغال العرب بقضاياهم الوطنية وعدم إدراكهم لقضايا عصرهم، فلم يفهموا حقيقة الاستعمار وضرورة التوحد خلال مرحلة الجمعيات السرية وإهمال مصر، كل ذلك ساهم في استمرار ابتعاد مصر عن الفكرة العربية حتى بعد سقوط عبد الحميد الثاني سنة 1909م.

لم يشارك المصريون في مؤتمر باريس 1913م وهو أول مؤتمر قومي عربي مع استبعاد قضية مصر من برنامجه، حيث حضر مصري واحد فقط وهو عزيز المصري، لذلك فلا غرابة أن نجد المصريين وقفوا موقفا عدائيا للثورة العربية (عواطف عبد الرحمان، 1979، ص61).

إنه لمن الأهمية أن نورد علاقة القومية المصرية بالقومية العربية التي تميزت بالتناقض خاصة بعد ظهور مصطفى كامل وتزعمه للحركة الوطنية ودعم التناقض الصراع بين التواجد التركي والاستعمار الأوروبي، فاكتمال القومية العربية يحد من التواجد التركي واكتمال القومية المصرية لتحقيق التحرر الوطني من الاستعمار الأوروبي، وتبرر الباحثة عواطف عبد الرحمان هذا التناقض بظروف موضوعية للقضية المصرية أحاطها بالضبابية حيث لم تدرك وحدة المعسكر (التركي - الأوروربي) رغم تناقضاته، كما لم تدرك أن الحلفاء الطبيعيين لمواجهتها لاستعمارهم الشعوب العربية فاستعانة مصر بالخلافة لإنهاء الاحتلال حال دون وجود تفاهم بينهم وبين عرب المشرق العربي الذي تربطه علاقة استعمار بالتواجد التركي (عواطف عبد الرحمان، 1979، ص45).

الخاتمة:

من خلال ما سبق يمكننا أن نخلص إلى مجموعة من النتائج أهمها:

أولا- ظهور التوجه القطري كتيار فكري مبكرا بمصر (مطلع القرن العشرين) كان نتيجة حتمية لما عاشته مصر من تواصل مع الغرب في مختلف الأشكال.

ثانيا- اختلاف الرؤى حول ضبط مفهوم القطرية المصرية بمرجعية ثابتة،مرده الأساس هو الاختلاف الإيديولوجي بين النخبة مثل الطهطاوي (إسلامي-فرعوني) ومحمد عبده (إسلامي) ولطفي السيد (علماني)، ومصطفى كامل مثلا وطني عربي إسلامي.

ثالثا- القطرية المصرية تدور أساسا حول تفرد المجتمع المصري بحدوده الطبيعية، والتي شكل لها النيل أحد الروافد الهامة لذلك.

رابعا- على الرغم من تواجد العديد من التيارات القومية في مصر إلا أن توفر جملة من العوامل لعبت لصالح غلبة تيار القطرية المصرية مع مطلع القرن العشرين، وبالتالي عزوفها عن عروبة وإسلامية مصر من جهة، وأفول التيار الفرعوني من ناحية أخرى.

خامسا- شكلت القطرية المصرية أهم محاور التفكير لدى غالبية النخبة المثقفة مطلع القرن 20م.

سادسا- إيمان أنصار تيار القطرية بتميز الكيان المصري وتفرد كينونته حال دون إيجاد صيغة موحدة للتفكير ضمن الإطار العربي أو الإسلامي.

قائمةالمراجع:

1) أ.جرشوني وج.جانكوفسكي. (2013). *هوية مصر بين العرب (1900-1920م)*. (بدر الرفاعي، المحرر) مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

2) أحمد طربين. (1987). التجزئة العربية كيف تحققت تاريخيا (المجلد 1). لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

3) ألبرت حوراني. (1983). الفكر العربي في عصر النهضة (1897-1939م). (كريم عزقول، المحرر) بيروت: دار نوفل.

4) ألكسي فاسيليف. (1994). مصر والمصريون (المجلد 1). لبنان: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع.

5) جورج أنطونيوس. (1987). يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية (المجلد 2). (ناصر الدين الأسد، إحسان عباس، المحرر) لبنان: دار العلم للملايين.

6) رفاعة الطهطاوي. (1980). مناهج الألباب في مباهج الآداب. مصر: دار المعارف.

7) سعيد إسماعيل علي. (1986). دور الأزهر في السياسة المصرية. مصر: دار الهلال.

8) سميرة بحر. (1979). الأقباط في الحياة السياسية المصرية. القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية.

9) طارق البشري. (1998). بين الجامعة الدينية والوطنية في الفكر السياسي (المجلد 1). القاهرة: دار الشروق.

10) طه حسين. (دت). مستقبل الثقافة في مصر. القاهرة: دار المعارف.

11) عاصم محروس عبد المطلب. (دت). الطلبة والحركة الوطنية في مصر (1922-1952م). القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.

12) عاطف العراقي. (1995). الشيخ محمد عبده (1849-1905م) مفكرا عربيا ورائدا للإصلاح الديني والاجتماعي. القاهرة: المجلس العربي للثقافة.

13) علي المحافظة. (1987). الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1798-1914م). مصر: الأهلية للنشر والتوزيع.

14) علي فهمي خشيم. (2001). بحثا عن فرعون العربي وأبحاث أخرى. القاهرة: مركز الحضارة العربية.

15) عواطف عبد الرحمان. (1979). مصر وفلسطين. الكويت: سلسلة عالم المعرفة.

16) كمال إسحاق فريد. (2001). محنة الهوية المصرية. القاهرة: رياض للطباعة.

17) محمد حسين. (1987). الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. مصر: مؤسسة الرسالة.

18) مصطفى كامل. (2014). *المسألة الشرقية*. مصر: مؤسسة هنداوي للنشر.

19) سامي صالح محمد الصياد. (2006). أطروحة دكتوراه بعنوان الصراع البريطاني-الفرنسي على مشروع قناة السويس (1854-1869م). العراق: جامعة بغداد